مسلك القرآن في توجيه العربية على المستوى اللهجي
وأثره على المقاربات اللهجية في العصر الحديث

The course of the Quran in directing Arabica at the level of dialects And its impact on the study of modern-era dialects

عبد القادر سماعيل[1]*، توفيق منصوري [2]

[1] كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية – أحمد بن بلة – جامعة وهران 1 (الجزائر)

semaiel.abdelkader@edu.univ-oran.dz

[2] كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية – أحمد بن بلة – جامعة وهران 1 (الجزائر)

mansouri31dz2004@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2023/04/23 تاريخ القبول: 2024/02/01 تاريخ النشر: 2024/03/14

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم مقاربة علمية حول طريقة القرآن الكريم في توجيه لهجات اللغة العربية؛ من خلال نظمه واختياره المعجز؛ الذي أسهم في توحيد العربية لهجيا، ونَحَتَ قالب الفصاحة فيها بما تضمّنه من طرق أداء ولهجات راقية مثبتة فيه، متحدثين عن أثر هذا المسلك الذي سلكه القرآن في التوجيه على التعدد اللهجي في العصر الحديث، والإشكاليات المطروحة بين العامية والفصحى، لنخلص إلى المنهج القويم الفاصل بين اللازم والواقع من أمر العربية واللهجات من لَدُن الذكر الحكيم.

كلمات مفتاحية: القرآن الكريم، اللهجات، اللغة العربية، الوحدة اللغوية، العامية.

Abstract:

This study aims to provide a scientific approach to the Quran method of guiding Arabic language dialects through its helpless approach and choice, which contributed to the unification of Arabic, and set the standard of rhetoric in it, through its performance methods and proven dialects. We also speak of the impact of the Quran on the direction of Arabic on the multiplicity of dialects in modern times and the problems raised between the vernacular language and the Arabic language.

We then conclude our study by mentioning the proper approach between the necessary and the reality of Arabic and vernacular, under the banner of the Holy Quran.

Keywords: The Holy Quran; Dialects; The Arabic language; Linguistic Unity; Vernacular.

---

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

القرآن الكريم هو الدستور الرباني والمعجزة الخالدة التي جعلها الله حجة ودليلا للعالمين، على اختلاف أزمنتهم ومعيشتهم وعلومهم، براهينه قائمة وآياته تصدع بالحق الذي لم يعارضه رأي ولا علم، نزل بلسان عربي مبين فأشرقت به العربية وازدادت شرفا على شرف، فقد أشربها ماء الحياة الذي حفظها من ظمئ السنين وتعاقب الأجيال، فكانت لغة الدين والعلم والمستقبل، لم تضق مستوياتها على أي علم من العلوم، ولم يجِد علماؤها عنها إلى غيرها لقصرٍ أو ضَعفِ معتمدٍ فيها، بل كانت روضة للعرب والعجم الذين ما تركوا علما من العلوم إلى كتبوا فيه، ومع زَخم الحياة والانفتاح التكنولوجي والثقافي في العصر الحديث، لا تزال العربية في مقدمة الركب اللغوي في العالم، تُبذل فيها الجهود قصد ربطها بكل ما هو مستجد من مسالك العلم، وتطرح حولها الإشكاليات والعوائق دون أن يميد أصلها أو تتحول عن وضعها الأول، بل تفتح أبوابها لكل الباحثين ليبدعوا فيها ابداعا على قدر الهمم والمقاصد الخادمة والناهضة بالعربية، على شاكلة الهمم التي خدمت العربية في العصر الذهبي للمسلمين، ولا يمكن تصور الدرس اللغوي خارج القرآن الكريم؛ الذي يعد أول مصادرِ الاحتجاج فيها، أحدث فيها الأثر البالغ في كل مستوياتها، ونحى بها نحواً مهما متعلقا باللهجات وطرق الأداء فيها، ذلك أن العربية تخللها مزيج من اللهجات تناثرت بين قبائل العرب، وقد كان لتوجيه القرآن للغة العربية على المستوى اللهجي أثر على العربية في العصر الحديث، وهو ما نحاول تقديم مقاربة علمية فيه من خلال هذه الدراسة الموسومة بـ:

" مسلك القرآن في توجيه العربية على المستوى اللهجي وأثره على المقاربات اللهجية في العصر الحديث."

لنجيب بها عن **الإشكاليات** الأتية:

- كيف كان الأداء اللهجي في اللغة العربية؟
- وكيف أسهم القرآن الكريم في توحيد لهجات العرب وتوجيهها؟
- هل مسلك القرآن المعجز في جانب اللهجات له دور في حفظ العربية؟
- وما أثر هذا التوجيه على اللغة امتدادا في الزمن إلى عصرنا الحديث؟

من خلال هذه الإشكاليات التي دارت رحاها حول اللهجات العربية وتوجيه القرآن لها، وقصد الوصول إلى بيان شاف في هذا المنحى، سلكنا مسلكا **وصفيا تحليليا** وفق منهجية قائمة على **مبحثين** وتحت كل مبحث **مطلبين**: **المبحث الأول**: خاص بالتعدد اللهجي في العربية الفصحى، مقدمين فيه قراءة في اصطلاح اللهجة، مع بيان معالمها وبعض خصائصها وحاكميتها في العربية في المطلبين المنطويين تحته.

أما **المبحث الثاني**: فعنونَّاه بـ: القرآن واللهجات العربية ومستجدات العصر الحديث، مشيرين في مطلبيه إلى نزول القرآن ولغته، ثم قدمنا مقاربة بين القرآن واللهجات ومستجدات العصر الحديث.

أهداف البحث: لا شك أن لكل باحث في أي جهد علمي جملة من الأهداف المسطرة التي يرُوم الوصول إليها، من خلال المقاربة والمنهجية العلمية التي يتبعها في بحثه، ولما كان مدار هذا البحث حول مسلك القرآن في توجيه اللهجات العربية وما لهذا التوجيه من أثر على العربية في العصر الحديث، تجلت لنا الأهداف الآتية في هذا المسعى:

1/ تقديم رؤية واضحة ومختصرة للتعدد اللهجي في اللغة العربية مع بيان اللغة التي نزل بها القرآن الكريم.

2/ بيان بعض الجوانب من التحول الذي أحدثه القرآن الكريم في اللهجات العربية من خلال ما هو ثابت فيه من هذه اللهجات.

3/ ربط مسلك القرآن في توجيه اللهجات العربية بما هو موجود في عصرنا الحديث على مستوى اللهجات وما تعلق به من إشكاليات.

4/ فتح شق من باب واسع خاص بدرس العربية في معينه الأول على مستوى اللهجات، ووقعه على المقاربات اللغوية واللهجية في العصر الحديث من أجل التوسع ومزيد الجهود في هذا الباب.

2. التعدد اللهجي في العربية الفصحى

اللغة العربية عبارة عن مجموع لغات أو لهجات أو لحون، كان يتكلم بها العرب في بواديهم وحواضرهم، لا اختلاف في أصلها، بل اختلافها في طرق الأداء وبنية بعض الألفاظ ودلالتها وهو ما يسمى بالاختلاف اللهجي، وليس هذا قيدا في العربية وحسب، بل هو حاصل في كل اللغات أن تختلف طرق أداء الناس للغتهم من منطقة إلى أخرى، فهذه الصفات اللسانية، التي تنتمي إلى بيئة اجتماعية معينة، يشترك فيها جميع أفراد هذه البيئة ، وتضم عدة لهجات، ولكل واحدة منها خصائصها المنفردة، وقد أطلق العرب قديمًا، على اللهجة لغة، فكان يقال لغة القبيلة، بدلا من لهجة القبيلة كلغة قريش، ولغة تميم، وهكذا. فهما كالأصل والفرع حيث تشمل اللغة عادة مجموع لهجات، لكل منها ما يميزها عن غيرها من اللهجات الأخرى. إلا أنها جميعا لها صفات لغوية عامة مشتركة.

1.2 قراءة في اصطلاح اللهجة:

لغة: " اللَّامُ وَالْهَاءُ وَالْجِيمُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى الْمُثَابَرَةِ عَلَى الشَّيْءِ وَمُلَازَمَتِهِ، وَأَصْلٌ آخَرُ يَدُلُّ عَلَى اخْتِلَاطٍ فِي أَمْرٍ. [...]، وَقَوْلُهُمْ: هُوَ فَصِيحُ اللَّهْجَةِ وَاللَّهَجَةِ: اللِّسَانُ، بِمَا يَنْطِقُ بِهِ مِنَ الْكَلَامِ. وَسُمِّيَتْ لَهْجَةً لِأَنَّ كُلًّا يَلْهَجُ بِلُغَتِهِ وَكَلَامِهِ."[1]

فاللهجة المتعلقة باللغة واللسان من الأصل الأول الدال على ملازمة الشيء واعتياده، بما قد يختلف فيه الجماعة والناس جريا على البيئة وطرق الأداء فيها، ذكر ابن منظور: "واللَّهْجةُ واللَّهَجةُ: جَرْسُ الكلامِ، والفتحُ أَعلى. وَيُقَالُ: فُلَانٌ فصيحُ اللَّهْجَةِ واللَّهَجةِ، وَهِيَ لُغَتُهُ الَّتِي جُبِلَ عَلَيْهَا فاعتادَها ونشأَ عَلَيْهَا."[2]

[1] أحمد بن فارس، 1979م، مادة (ل ه ج)، جزء5، ص214.

[2] ابن منظور، 1414هـ، مادة (ل ه ج)، جزء2، ص359.

اصطلاحا: عرفها ابراهيم أنيس قائلا: " اللهجة في الاصطلاح العلمي الحديث هي مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة، وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات، لكل منها خصائصها، ولكنها تشترك جميعا في مجموعة من الظواهر اللغوية التي تيسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض."[3]

وعرفها عبد الغفار حامد أنها: " طريقة معينة في الاستعمال اللغوي توجد في بيئة خاصة من بيئات اللغة الواحدة."[4]

من خلال تعريف إبراهيم أنيس نلاحظ أنه ربَط اللهجة بداءة بصفات في اللغة تبعا لبيئة معينة يشترك فيها أفراد تلك البيئة، وتتوسع هذه اللهجات وفق خصائص تميزها، لتسهل اتصال أفراد تلك البيئة مع بعضهم من خلال اشتراكهم في تلك اللهجة، في حين أن الدكتور عبد الغفار حامد ربط اللهجة بطريقة الأداء في بيئة معينة ضمن حيز لغة واحدة، والقدر المتفق بين هاذين التعريفين أن اللهجة متعلقة باللغة من حيث تعلق الخاص بالعام، إذ اللغة عامة تشتمل على عدة لهجات لها ما يميزها وتلتقي في أصل اللغة وأحضانها ضمن خصائص جامعة مشتركة فيها، وهي مرتبطة بأداء الفرد والجماعة في بيئتهم والتي تميزهم عن غيرهم من حيث هذا الأداء الذي تجمعه اللغة، فاللهجة تتحدد بالأداء الكلامي والاحتواء اللغوي، اختلافها تابع للفرد والبيئة وتعددها راجع للغة الواحدة.

وبين التعريف اللغوي والاصطلاحي اشتراك من حيث ملازمة المتكلم للهجة واعتياده عليها في بيئته بما يميزه عن غيره من المتكلمين بنفس اللغة، وقد اختلف تعبير القدماء عما اصطلحنا عليه لهجة وما تعلق بهذا الاصطلاح من دلالة خاصة في عصرنا بما قصدوه وعبروا به، فأطلقوا على اللهجة لغة وأطلقوا عليها لحنا فقالوا: لغة تميم ولغة أسد ولغة هذيل، وقد ورد هذا كثيرا في المعاجم، نقل الأزهري عن الأصمعي قوله: "السِّرْحَانُ والسيِّد فِي لُغَة هُذَيْل: الأسَدُ. وَفِي لُغَة غَيرهم الذِّئْبُ."[5]

فلا يتصور أن هذيلا أو غيرها من القبائل قد انفردت بلغة خارجة عن العربية وإنما المقصود لهجتها وطريقة أداءها للعربية، وفي اطلاقهم لاصطلاح لحون على اللهجات نقل الزمخشري عن أبي مهديّة قوله: "ليس

---

[3] إبراهيم أنيس، 2003م، ص15.

[4] عبد الغفار حامد هلال، 1993م، ص33.

[5] أبو منصور الأزهري، 2001م، مادة (س ر ح)، جزء4، ص173.

هذا من لحني ولا من لحن قومي أي من نحوي ومذهبي الذي أميل إليه وأتكلم به، يعني لغته ولَسنه."[6]، ونقل الأزهري عن أبي عبيد عَن أبي زيد: " لَحَنَ الرجلُ بِلَحْنِه إذا تكلمَ بلُغته."[7]

أما عن دراسة اللهجات في مختلف اللغات في العصر الحديث فهي من أبرز المسالك البحثية في علم اللغة، ظهرت فيها عديد الكتب والأبحاث والدراسات بحثا عن هذه اللهجات وتفريقا بينها، وربطا لها مع اللغة الأصل، ولم تقتصر دراسة اللهجات على جانب لغوي بحت، بل اتسعت لتبحث في جوانب أنثروبولوجية، وسيكولوجية، وتعددت مناهج البحث فيها بحسب التوسع العلمي والتبادل المعرفي بين العالم، ذلك أن دراسة اللهجات قد نمت كثيرا في الجامعات الأوروبية منذ القرن التاسع عشر والعشرين، وصار لدراستها في كثير من الجامعات فروع خاصة تعنى بدراستها[8]، وقد كان لهذه الدراسات الغربية دور في دراساتنا العربية بما استفاده الدارسون وعلماء اللغة منها، وربطوه مع دراساتنا العربية الرصينة في جانب اللغات واللهجات منذ بدأ الحركة العلمية في الإسلام، ثم إن موضوع اللهجات في العربية خاصةً له ارتباط وثيق بالقرآن الكريم، فكان موضوع اللهجات ضمن الدراسات القرآنية، وعلم التفسير ليكون بهذا موضوعُ اللهجات ودراساتها قد عرف جوانب بحثية عديدة نتج عنها زخم علمي جيد، لا يزال متواصلا خصبا في عصرنا، نذكر من هذه الجهود تمثيلا، كتاب إبراهيم أنيس" في اللهجات العربية"، كتاب عبده الراجحي" اللهجات العربية في القراءات القرآنية"، كتاب حامد هلال" اللهجات العربية نشأة وتطورا"، وكتابه " القراءات واللهجات من منظور علم الأصوات الحديث"، وغيرها من الكتب والأبحاث الكثيرة في هذا الباب من أبواب علم اللغة.

2.2 اللهجات العربية وحاكميتها بين العرب:

العرب كما هو معلوم خلية من القبائل التي اختلف فيها الأداء اللغوي، فمن حيث الأصوات نجد أن لقيس وتميم عنعنة متمثلة في قلب الهمزة المبدوء بها عينا، يقولون في: أنك عنك، وفي أذن عذن، وفي أسلم عسلم، كما نجد في ربيعة ومضر الكَشْكَشة، يجعلون بعد كاف الخطاب في المؤنث شِيناً فيقولون:

---

[6] الزمخشري، 1998م، مادة (ل ح ن)، جزء2، ص164.

[7] أبو منصور الأزهري، 2001م، مادة (ل ح ن)، جزء5، ص40.

[8] ينظر: إبراهيم أنيس، 2003م، ص9.

رَأَيْتُكش وبكَش وعَلَيْكَش، ومن ذلك العَجْعَجَة في لغة قضاعة يجعلون الياء المشدَّدة جيما يقولون في تميمي تميمِجّ. وعدّ هذا من المذموم في اللغة.[9]

كما قد يقع الاختلاف في اللهجات من حيث المعاني في الألفاظ الواحدة، نقل السيوطي عن أبي عبيد القاسم بن سلاّم في الغريب المصنف، باب الأضداد: قوله: " سمعت أبا زيد سعيد بن أوس الأنصاري يقول: النَّاهِل في كلام العرب: العَطْشان، والناهل: الذي قد شرِب حتى رَوي والسُّدْفة في لغة تميم: الظلمة والسُّدْفة في لغةِ قيس: الضوء. وبعضهم يجعلُ السُّدْفة اختلاطُ الضوء والظلمة معا كوقت ما بين صلاة الفجر إلى الإسفار."[10]

ومن ذَلِكَ: الاختلاف فِي الهمز والتليين نحو: "مستهزءون" و"مستهزُوْن"، ومنه: الاختلاف فِي التقديم والتأخير نحو: "صاعقة" و"صاقعة"، ومنها: الاختلاف فِي الحذف والإثبات نحو "استحيَيْت" و "استحْيت" و"وصدَدْت" و "أَصْدَدْت"، ومنها: الاختلاف فِي التذكير والتأنيث فإن من العرب من يقول "هَذِهِ البقر" ومنهم من يقول "هَذَا البقر" و"هذه النخيل" و "هَذَا النخيل"، ومنها: الاختلاف فِي الإدغام نحو: "مهتدون" و "مُهَدُّون".[11]

والأمثلة على تعدد اللهجات بين قبائل العرب كثيرة أردنا أن نمثّل لها من أجل احداث التصور الذي به نفهم افضلية اللغة التي نزل بها القرآن الكريم، وما أحدثه في هذه اللهجات، فمع الاختلاف اللهجي الذي أشرنا إليه كان العرب يلتقون في التجارة ومواسم الحج، والأسواق الأدبية، ويتبادلون الأشعار ويجوّدون الكلام على اختلاف لهجاته فيستفيدون من بعضهم من حيث اللغة، وأكثر ما كان يقع من ذلك في قريش فينخلون منها ما يُرقّي لهجتهم ويجعلها في صدارة اللهجات كلها، نقل السيوطي عن الفراء قال: "كانت العربُ تحضر الموسِم في كل عام وتحجُّ البيتَ في الجاهلية وقريشٌ يسمعون لغاتِ العرب فما

---

[9] ينظر: جلال الدين السيوطي، 1998م، جزء1، ص176/175.

[10] المصدر نفسه، جزء1، ص307/306.

[11] أحمد بن فارس، 1997م، ص26.

اسْتحسنوه من لغاتهم تكلموا به فصاروا أفصحَ العرب وخلَتْ لغتُهم من مُستبْشع اللغات ومُستقبَح الألفاظ."[12]

وقد تهيأ لهم هذا النفوذ اللغوي من خلال عوامل أسهمت فيه على رأسها نفوذهم الديني، حيث نال القرشيون تقدير العرب لمجاورتهم البيت الحرام، والقيام على شؤونه سقاية وضيافة وتعليما للمناسك، وما زاد من هذا النفوذ حادثة الفيل وما وقع لأبرهة الأشرم وجنوده، حتى قال عنهم سائر العرب: قريش أئمة الناس وهداتهم، وأهل البيت، وصريح ولد إسماعيل وقادة العرب. قال ابن هشام: " قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: فَلَمَّا رَدَّ اللَّهُ الْحَبَشَةَ عَنْ مَكَّةَ، وَأَصَابَهُمْ بِمَا أَصَابَهُمْ بِهِ مِنْ النِّقْمَةِ، أَعْظَمَتْ الْعَرَبُ قُرَيْشًا، وَقَالُوا: هُمْ أَهْلُ اللَّهِ، قَاتَلَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَكَفَاهُمْ مَئُونَةَ عَدُوِّهِمْ. فَقَالُوا فِي ذَلِكَ أَشْعَارًا يَذْكُرُونَ فِيهَا مَا صَنَعَ اللَّهُ بِالْحَبَشَةِ، وَمَا رَدَّ عَنْ قُرَيْشٍ مِنْ كَيْدِهِمْ."[13]

وكذا نفوذهم التجاري، فقد غطّت تجارة القرشيين أنحاء الجزيرة وما حولها من المناطق في الشام والعراق، ومصر، وفارس، والحبشة، وهم آمنون مطمئنون في ترحالهم لمكانتهم بين العرب ودورهم في التجارة؛ فقد مثلوا الوسيط التجاري بين بلاد الشام والروم والمناطق الجنوبية من شبه الجزيرة العربية، كما أن الموقع الجغرافي لمكة ووجود الكعبة جعل قريشا مقصدا للتجار، قصد التبادلات التجارية ومعاينة البضائع وطلب الربح نتيجة الوفود المختلفة من شتى المناطق التي تهوي إليها.[14]

ومع ضعف اليمن واحتلالها من طرف الأحباش مع نهاية القرن الثالث الميلادي انتقلت سيادة التجارة إلى مكة فاشتهروا برحلتي الشتاء والصيف، وكانت لهم معاهدات مع الأمم، مع ملوك الشام، والحبشة والعراق وفارس، وأخذ عبد المطلب عهدا على ملوك حِمير اليمنيين، فكانوا بهذا آمنين في ترحالهم وتجارتهم، يقول الطبري: " أخذ لهم هاشم حبلا من ملوك الشام والروم وغسّان، وأخذ لهم عبد شمس حبلا من النجاشي الأكبر، فاختلفوا بذلك السبب إلى أرض الحبشة، وأخذ لهم نوفل حبلا من الأكاسرة،

[12] جلال الدين السيوطي، 1998م، جزء1، ص175.

[13] عبد الملك بن هشام، 1955م، جزء1، ص57.

[14] للاستزادة ينظر: أحمد شلبي، 1959م، ص56/53.

فاختلفوا بذلك السبب إلى العراق وأرض فارس، وأخذ لهم المطلب حبلا من ملوك حِمير، فاختلفوا بذلك السبب إلى اليمن، فجبر الله بهم قريشا، فسموا المجبرين."[15]

وأيضا نفوذهم السياسي لعب دورا كبيرا في رفع مكانة قريش، فقد كانت مكة حرما آمنا لا يظلم فيها أحد، وكان لأسياد قريش دور كبير وكلمة مسموعة يحتكمون إليهم في فك النزاعات ويأتمنونهم على تجارتهم، فقد علقت تجارة العرب على ذمة بني عبد مناف الأربعة، هاشم وعبد شمس، والمطلب، وعبد مناف، بما أخذوه من عقود ومعاهدات مع الأمم التي مثلت تجارتهم، فهم بهذا أصحاب رأي وكلمة عند العرب.

مع هذه العوامل المهمة لم تقتصر مكانة قريش في ديانة أو تجارة بل حتى في لغتهم بين كل القبائل الأخرى، ولقبائل العرب نفسها شاهد في ذلك واعتراف، نقل ابن عبد ربه الأندلسي عن الأصمعي قال: قال معاوية يوما لجلسائه: " أيّ الناس أفصح؟ فقال رجل من السُماط: يا أمير المؤمنين، قوم قد ارتفعوا عن رتّة العراق، وتياسروا عن كشكشة بكر، وتيامنوا عن شنشنة تغلب، ليس فيهم غمغمة قضاعة، ولا طمطمانية حمير. قال: من هم؟ قال: قومك يا أمير المؤمنين، قريش. قال: صدقت! فمن أنت؟ قال: من جرم. قال الأصمعي: جرم فصحاء الناس."[16]

مع أن جرم من فصحاء الناس وأسياد البيان؛ إلا أنهم عرفوا رفعة لسان قريش ولغتهم لما حملته من خصائص جعلتها مقدمة على كل اللهجات، فأهل مكة قد استفادوا من لهجات القبائل وتخيّروا منها كما أسلفنا الذكر، ثم قد ابتعدوا بلغتهم عن مظاهر الفساد اللغوي فحصل لهم بهذا السبق اللغوي بما خصت به هذه اللغة، يقول إبراهيم أنيس: " فبيئة مكة قد هُيئت لها ظروف وفرص بعضها ديني، وبعضها اقتصادي واجتماعي، مما ساعد على أن تصبح المركز الذي تطلعت إليه القبائل وشدت إليه الرحال قرونا

[15] محمد بن جرير الطبري، 1387هـ، جزء2، ص252.

[16] ابن عبد ربه الأندلسي، 1404هـ، جزء2، ص305.

قبل الإسلام، وكان أن نشأت بها لغة مشتركة أُسست في كثير من صفاتها على لهجة مكة ولكنها استفادت أيضا الكثير من صفات اللهجات."[17]

إذن يظهر علو اللسان على قدر ما امتاز به أهله من عوامل متضافرة في بيئتهم، تجعل لغتهم من ركائز الاستشهاد؛ وليس هذا حصرا على لهجة من اللهجات كالقرشية، بل إن اللغة العربية هي تضافر لهجي وثيق بين قبائل كثيرة تمثّلَ ماءُ الحياة فيها في القرآن الذي أخرج أعلى ما فيها كما سيأتي بيان ذلك، يقول ابن خلدون: " كانت لغة قريش أفصح اللّغات العربيّة وأصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم. ثمّ من اكتنفهم من ثقيف، وهذيل، وخزاعة، وبني كنانة، وغطفان، وبني أسد وبني تميم. وأمّا من بعد عنهم من ربيعة، ولخم، وجذام، وغسّان، وإياد، وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والرّوم والحبشة؛ فلم تكن لغتهم تامّة الملكة بمخالطة الأعاجم. وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصّحّة والفساد عند أهل الصّناعة العربيّة."[18]

3. القرآن واللهجات العربية ومستجدات العصر الحديث

كان نزول القرآن الكريم من أعظم الأحداث الربانية التي مرت على البشرية عامة والعرب خاصة، فقد أحدث فيهم وفي غيرهم التحول العجيب على كل مستويات الحياة، اجتماعية، واقتصادية، وعلمية، ودينية وزد عليها، فالعرب الذين انغلقوا على صحرائهم، وصدأت بذلك أخلاقهم وعلومهم فلم يبصروا شيئا إلا بما وقع من رحلاتهم التجارية، صاروا في زمن وجيز سادة وطئت أقدامهم أراضٍ لم يحلموا بها قط، كسادة وليس كعابري سبيل، ظهرت علومهم على الناس وبرز علماء جمعهم الإسلام ليبدعوا في مجالات كثيرة شهد لها العالم بالجودة وأرخى لها فكّه اندهاشا، في الطب، واللغة، والفلك، والهندسة، وعلوم الشريعة وغيرها من العلوم، وقد كان للقرآن على العربية أثر بالغ امتد لعصرنا الحديث، كان للمستوى اللهجي في هذه اللغة جانب من هذا الأثر بما أحدثه القرآن في لهجاتها.

1.3 نزول القرآن ولغته:

---

[17] إبراهيم أنيس، 1960م، ص8.

[18] عبد الرحمن بن خلدون، 1988م، جزء1، ص765.

نزل القرآن والعربية على هذا الحال الذي ذكرنا من التعدد اللهجي والتفاوت بين هذه اللهجات في الفصاحة، ولما كان القرآن الكريم المعجزة التي أيد الله بها نبيه من جنس ما برع فيه العرب وصاروا أسيادا فيه وهو اللغة والبيان، كان مقتضى هذه المعجزة أن تكون بلسانهم ومعهودهم اللغوي وفق ما يعجز عنه أرباب الفصاحة والبيان ﴿ ﴾ [الشعراء: 195]، فالقرآن الكريم مزيج محكم ونظم معجز من مجموع هذه اللهجات، وقد اختار الله سبحانه أرفعها وأبلغها وأفصحها وأبينها وأسلسها، من هذه اللغة، فكانت لغة قريش، وهي أفصح لهجات العرب وأوضحها، لبعدها أكثر من غيرها عن بلاد العجم، فصانها هذا البعد من فساد الألسن والتأثر بأساليب نطقهم المعوج كما سبق بيان ذلك، إلاّ أن هذا لم يمنع من ورود ألفاظ وأساليب كثيرة لقبائل عربية أخرى، احتج بها القرآن الكريم واستعملها، فهو بما حواه من غريب وتعدد لهجي وألفاظ ذات دلالات جديدة يمثل منتهى نهايات الفضيلة، وقد ذكروا من اللغات في القرآن الكريم ما يزيد عن خمس وثلاثين لغة، ذكر هذا عبد الله بن الحسين في كتابه اللغات في القرآن بإسناده إلى بن عباس رضي الله عنه: " لغة قريش، وهذيل، وكنانة، والأوس والخزرج، وخثعم وقيس عيلان، وسعد العشيرة، وجرهم، واليمن، وأزد شنوءة، وكندة، وتميم، وحمير، ومدين، ولخم، وحضرموت، وسدوس، والحجاز، وأنمار وغسّان، وبني حنيفة وتغلب، وطيء، وعامر بن صعصعة، ومزينة، وثقيف، وجذام، والفرس، والنبط، والحبشة، والسريانية والعبرية، والقبط، والروم، والعمالقة، [...]"[19]

وفي قوله هذا ذكر للغات من غير لغات العرب وقد اختلف العلماء فيما هل في القرآن غير لغة العرب؟ فذهبوا في ذلك مذاهب بين النفي والاثبات والتوسط فقرر الزركشي أَنَّ الْقُرْآنَ أَنْزَلَهُ اللَّهُ بِلُغَةِ الْعَرَبِ فَلَا يَجُوزُ قِرَاءَتُهُ وَتِلَاوَتُهُ إِلَّا بِهَا وأن لَيْسَ فِيهِ غَيْرُ الْعَرَبِيِّ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَهُ مُعْجِزَةً شَاهِدَةً لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَلِيَتَحَدَّى الْعَرَبَ الْعُرَبَاءَ بِهِ، فَلَوِ اشْتَمَلَ عَلَى غَيْرِ لُغَةِ الْعَرَبِ لَمْ تَكُنْ لَهُ فَائِدَةٌ، ونسب هذا القول إلى الشَّافِعِيِّ وجُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ مِنْهُم أَبُو عُبَيْدَةَ وَمُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ وَالْقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ الطَّيِّبِ وَأَبُو الْحُسَيْنِ بن فَارِسٍ اللُّغَوِيُّ وَغَيْرهمْ.[20]

---

[19] ينظر تفصيل ذلك في كتابه: عبد الله بن الحسين بن حسنون، 1946م، ص3.

[20] بدر الدين الزركشي، 1957م، جزء1، ص287.

وتوسط بن سلاّم فقال: " وَالصَّوَابُ عِنْدِي مَذْهَبٌ فِيهِ تَصْدِيقُ الْقَوْلَيْنِ جَمِيعًا، وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأَحْرُفَ أُصُولُهَا أَعْجَمِيَّةٌ كَمَا قَالَ الْفُقَهَاءُ إِلَّا أَنَّهَا سَقَطَتْ إِلَى الْعَرَبِ فَعَرَّبَتْهَا بِأَلْسِنَتِهَا وَحَوَّلَتْهَا عَنْ أَلْفَاظِ الْعَجَمِ إِلَى أَلْفَاظِهَا، فَصَارَتْ عَرَبِيَّةً ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ وَقَدِ اخْتَلَطَتْ هَذِهِ الْحُرُوفُ بِكَلَامِ الْعَرَبِ فَمَنْ قَالَ إِنَّهَا عَرَبِيَّةٌ فَهُوَ صَادِقٌ وَمَنْ قَالَ أَعْجَمِيَّةٌ فَصَادِقٌ. قال وإنما فسر هَذَا لِئَلَّا يُقْدِمَ أَحَدٌ عَلَى الْفُقَهَاءِ فَيَنْسِبَهُمْ إِلَى الْجَهْلِ وَيَتَوَهَّمَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ أَقْدَمُوا عَلَى كتاب الله بغير ما أراده الله جل وعز فَهُمْ كَانُوا أَعْلَمَ بِالتَّأْوِيلِ وَأَشَدَّ تَعْظِيمًا لِلْقُرْآنِ."[21]

وليس المراد هنا تحرير الخلاف والنظر في مسائله بل المستفاد من هذا ما يخدم جزئيتنا وهو أن الخلاف بين العلماء وقع فيما ليس بلسان العرب وليس فيما ورد فيه من لهجات غير لغة قريش فهذا مما هو مقطوع فيه، إذ القرآن ليس على صعيد لهجي واحد بلغة قريش على وجه الخصوص.

ذلك أنّ القرآن الكريم، لم ينزل جملة واحدة، ولا في مكان واحد، بل نزل منجمًا متعلقا بأسباب نزول وحكم كثيرة منها التدرج في التشريع، وتيسير حفظه والعمل به، وتثبيت النبي والمؤمنين بمعية الوحي، فكان هذا على مدار ثلاث وعشرين سنة، قبل الهجرة وبعدها، ﴿ ﴾ [الإسراء: 106].

وقال أيضا: ﴿ ﴾ [الفرقان: 32].

نزل جبريل عليه السلام بالآيات يبلغها للرسول ﷺ أولا بأول، فيتلقاها المؤمنون من فم النبي ﷺ مباشرة، ويكتبها رجال عرفوا بأنهم من كتاب الوحي كزيد بن ثابت، وأبيّ بن كعب، ومعاوية وغيرهم، تماما كما يمليها عليهم النبي ﷺ. والإسلام في مكة كان محدود الانتشار، وأتباعه قله، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة، اتسعت رقعته وازداد عدد أفراده، وهم من قبائل شتى، لهم لهجات وعادات صوتية تخضع لها ألسنتهم، وتميزهم عن غيرهم، ويتعذر على الواحد منهم أن ينتقل من لهجته التي درج عليها واعتادها أبا عن جدّ، ومرّن لسانه على التخاطب بها منذ نعومة أظفاره، أن يعدل عنها بسهولة ولو عن طريق التعليم والتدريب، وبخاصة للرجل المسن والمرأة العجوز. فلو كلفهم الله تعالى، العدول عن لهجتهم، والانتقال عنها،

[21] ينظر: بدر الدين الزركشي، 1957م، جزء1، ص290

واتباع لهجة أخرى، لشق عليهم غاية المشقة، ولكان من قبيل التكليف بما لا تطيقه طبيعتهم النفسية وطاقتهم الإنسانية، والله سبحانه يقول: ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: 17].

فاقتضت رحمة الله بعباده أن يخفف عنهم، وأن ييسر لهم حفظ كتباهم العزيز، وتلاوة دستورهم الإلهي، ففي الحديث الصحيح عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ عِنْدَ أَضَاةِ بَنِي غِفَارٍ، قَالَ: فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُقْرِئَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، قَالَ: "أَسْأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ " ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُقْرِئَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفَيْنِ، فَقَالَ: "أَسْأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، إِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ " ثُمَّ جَاءَهُ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُقْرِئَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى ثلاثة أَحْرُفٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَسْأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، فَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ " ثُمَّ جَاءَ الرَّابِعَةَ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُقْرِئَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَأَيُّمَا حَرْفٍ قَرَءُوا عَلَيْهِ فَقَدْ أَصَابُوا."[22]

فمن سماحة الدين الحنيف وتيسيره على المسلمين، أن ترك الألسن على سجيتها وما هي عليه من اللهجة، من إمالة "كسر" وتفخيم، وترقيق، وما شابه ذلك من طرائق في الكلام، بنغمة تستجيب لها طبيعتهم اللغوية.

يقول ابن الجوزي: " نزل القرآن على سبع لغات فصيحة من لغات العرب وقد كان بعض مشايخنا يقول: كله بلغة قريش، وهي تشتمل على أصول من القبائل هم أرباب الفصاحة، وما يخرج عن لغة قريش في الأصل لم يخرج عن لغتها في الاختيار. وقد استدل أبو جعفر الطبري على أن المراد سبع لغات بأنه لما تمارى القَرَأَةُ عند النبي ﷺ صوَّب الجميع. ولو كانت تلاوتهم، تختلف في تحليل وتحريم لما صوَّب ذلك. فدل على أن الاختلاف في اللغات كان. ويدل عليه قول ابن مسعود: "إني قد سمعتُ القَرَأَةَ فوجدتُهم متقاربين، فاقرؤوا كما عُلِّمتم، وإياكم والتَنطع "[23]

---

[22] رواه الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، باب: حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى، رقم: 21172، جزء35، ص103.

[23] عبد الرحمن ابن الجوزي، 1987م، جزء1، ص218.

واستدلوا على هذا بأدلة صحيحة منها الحديث السابق وما رواه البخاري أيضا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ عَلَى حَرْفٍ، فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ»[24]

أما القول أنه نزل بلغة قريش استدلالا بأدلة منها أمر عثمان بن عفان رضي الله عنه الكتبة أن يرجعوا ما اختلفوا فيه إلى لغة قريش فبها أنزل، هو على سبيل الأغلب وأكثر ما وقع في القرآن من اللغات، لا على سبيل التخصيص، قَالَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي التَّمْهِيدِ قَوْلُ: " مَنْ قَالَ إِنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِلُغَةِ قُرَيْشٍ مَعْنَاهُ عِنْدِي فِي الْأَغْلَبِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ لِأَنَّ غَيْرَ لُغَةِ قُرَيْشٍ موجودة في صحيح القراءات مِنْ تَحْقِيقِ الْهَمَزَاتِ وَنَحْوِهَا وَقُرَيْشٌ لَا تَهْمِزُ وَقَدْ رَوَى الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ صَارَ فِي عَجُزِ هَوَازِنَ مِنْهَا خَمْسَةٌ."[25]

فجمهور العلماء على أن المصاحف العثمانية في مجموعها تشتمل على ما ثبت في العرضة الأخيرة من الأحرف السبعة، فليس كل مصحف بمفرده يشتمل على جميع الأحرف السبعة، بل الثابت منها منتشر في المصاحف العثمانية كلها، وقد أجمع الصحابة على ما فيها من الأحرف السبعة، ثم لا نجد خبرا صحيحا ولا ضعيفا عن عثمان بأنه أمر بإلغاء بقية الأحرف، والاختلافات الموجودة في المصاحف العثمانية دليل قاطع على وجود الأحرف السبعة فيها، فلو كانت المصاحف مكتوبة بلغة واحدة وبحرف واحد فقط وهو لغة قريش لما كان فيها وجود هذا الاختلاف، ووجود كثير من الكلمات القرآنية في المصاحف العثمانية على غير لغة قريش دليل على أن المصاحف لم يقتصر في كتابتها على لغة قريش فقط.

يقول ابن الجزري: "وَذَهَبَ جَمَاهِيرُ الْعُلَمَاءِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ وَأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْمَصَاحِفَ الْعُثْمَانِيَّةَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى مَا يَحْتَمِلُهُ رَسْمُهَا مِنَ الْأَحْرُفِ السَّبْعَةِ فَقَطْ، جَامِعَةٌ لِلْعَرْضَةِ الْأَخِيرَةِ الَّتِي

[24] رواه البخاري في صحيحه: محمد بن إسماعيل البخاري، باب: ذكر الملائكة، رقم: 3219، جزء: 4، ص113.

[25] ابن عبد البر، 1387هـ، جزء8، ص280.

عَرَضَهَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَى جِبْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مُتَضَمِّنَةٌ لَهَا لَمْ تَتْرُكْ حَرْفًا مِنْهَا. قُلْتُ: وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الَّذِي يَظْهَرُ صَوَابُهُ؛ لِأَنَّ الْأَحَادِيثَ الصَّحِيحَةَ وَالْآثَارَ الْمَشْهُورَةَ الْمُسْتَفِيضَةَ تَدُلُّ عَلَيْهِ وَتَشْهَدُ لَهُ."[26]

وبعد هذا البيان الذي رمنا من خلاله احداث تصور عام عن اللهجات عند العرب وفي القرآن الكريم يأتي السؤال الجوهري، كيف أسهم القرآن الكريم في توحيد لهجات العرب؟، وما أثر هذا التوجيه على اللغة امتدادا في الزمن؟.

2.3 بين القرآن واللهجات ومستجدات العصر الحديث:

أسلفنا القول في أن طبيعة المعجزة تقتضي أن تكون من جنس معهود الناس بما لا يستطيعونه مع إيقاع التحدي عليهم، والقرآن نزل باللغة التي بسط فيها العرب فُرش مكنتهم وبانوا بها عن سائر الأمم، ولما كانت العرب قبائل، والسيادة وكّلت لقريش في شتى مجالاتها، كان نبينا الكريم من قريش ومن أشرفهم نسبا فهو بهذا من أشرف القبائل ومن أشرف ما في القبيلة من نسب.

وكان الأصل الذي نزل به القرآن والغالب عليه من اللغات هو لغة قريش، التي أسلمت لبلاغتها وسبقها كل القبائل، يقول الرافعي: "ولما كان الوجه الذي أقبل به القرآن على العرب وجه تلك البلاغة المعجزة، فقد كان من إعجازه أن يأتيهم بأفصح ما تنتهي إليه لغات العرب جميعًا، وإنما سبيل ذلك من لغة قريش."[27]

وهو مع هذا مشتمل على لغات أخرى من لغات العرب جمع أسمى ما فيها وأجود ما عبرت به ليكون المعجزة التي نخلت كل لهجات العرب، لتجمع وتنظم ما تساقط من دررها في أسلوب عجيب مؤتلف قال الرافعي: " وقد استوفى القرآن أحسن ما في تلك اللغات من ذلك المعنى، وبان منها بهذه المناسبة العجيبة التي أظهرته على تنوعه في الأوضاع التركيبية مظهر النوع الواحد وهي مناسبة معجزةٌ في

---

[26] ابن الجزري، [د.ت]، جزء1، ص31.

[27] مصطفى صادق الرافعي، [د.ت]، جزء2، ص43.

نفسها؛ لأن التأليف بين المواد المختلفة على وجه متناسب ممكن، ولكن التأليف بينها على وجه يجمعها ويجمع الأذواق المختلفة عليها كما اتفق القرآن، أمر لا يقول بإمكانه من يعرف معنى الإمكان."[28]

والقرآن الكريم كله على تعدد لهجاته، يصدّق بعضه بعضًا، ويشهد بعضه لبعض، على نمط واحد من الأسلوب والتعبير، وهدف واحد من سمو الهداية والتعليم، وهو بهذا متعدد الإعجاز بتعدد الأوجه واللهجات والقراءات فيه، ولولا ما في القرآن من هذا التعدد اللهجي والاختيار، لبادت تلك اللهجات كلها أو جلها ودرست بذهاب الناطقين بها، ثم ما سجله العلماء قديما من مختلف القراءات والاستدلال عليها بلهجات القبائل، له دور كبير في معرفة الفروق الدقيقة، بين لهجات تلك القبائل في يومنا هذا، والتي عاصرت نزول الوحي، وله أثر بالغ في معرفة وجوه الاختلاف بين علماء اللغة، فيما يذهبون إليه من أقوال يعللون بها المسائل النحوية أو الصرفية، يقول الرافعي: " ولقد ائتلفت لغة القرآن الكريم على وجه يستطيع العرب أن يقرأوه بلحونهم وإن اختلفت وتناقضت؛ ثم بقي مع ذلك على فصاحته وخلوصه؛ لأن هذه الفصاحة هي في الوضع التركيبي كما أومأنا إليه آنفًا، وتلك سياسة لغوية استدرج بها العرب إلى الإجماع على منطق واحد ليكونوا جماعة واحدة، كما وقع ذلك من بعد؛ فجرت لغة القرآن على أحرف مختلفات في منطق الكلام، كتحقيق الهمز وتخفيفه، والمد والقصر [...]."[29]

فتعدد اللهجات في العربية أو غيرها مما هو حاصل متقرر، بيد أن تعدد هذه اللهجات لا يمكن أن يوصف بصفات السمو التي تمتاز بها اللغة المختارة المنخولة في كل مستوياتها، فلو نظرنا الى التعدد اللهجي في العربية كما سبق التمثيل، لوجدنا أن كثيرا من هذا التعدد عدّ من عيوب الفصاحة والبلاغة، كالكشكشة، والعنعنة، والشنشنة، والغمغمة، أو نُفي عنه وصف الجزالة مقارنة مع غيره مما هو في معناه عند قوم آخرين في لهجتهم، ولوجدنا أيضا أن هذا الاختلاف اللهجي يصدق على بعضه الرفعة في حال والدنو في آخر، وأقصى ما وصلت اليه الرفعة اللهجية في العربية لهجة قريش، فكان القرآن الكريم جامع

[28] مصطفى صادق الرافعي، [د.ت]، جزء2، ص44.

[29] المرجع نفسه، [د.ت]، جزء2، ص44.

الدرر المتناثرة بين القبائل فخرج بأجود وأرفع ما في العربية من اللهجات، فهو بهذا مصدر اللغة العربية ومرجعها الذي يحتكم إليه وتجوّد به سائر الألسن بما هو موجود فيه من هذه اللهجات.

كان للعربية بفضل القرآن السير في مسار ثابت عبر العصور وفي مختلف الأمكنة، لم يضع عقدها ولم تتشتت كما حدث لكثير من اللغات الأخرى، فلو أن هذه اللهجات العربية لم تنتقى وتزيد عليها الدراسات بحثا بمعية القرآن، لتحولت عن أصلها الأول وتغيرت بتغير ظروف الناطقين بها أو تعاقبهم، ونحن اليوم في العربية نجهل كثيرا من اللهجات التي كانت موجودة لم تصلنا طرق الأداء فيها، ولا سبرٌ لخصائصها، لكننا نعلم يقينا أن المستعمل من هذه اللهجات وقع اختيارا لسماقته وجودته، ولا اختلاف كما ذكرنا قبلُ في العربية على العموم في مستوياتها من حيث الاختلاف اللهجي، فمنهج جمع اللغة الذي كان من منطلق الحياة اليومية ومخالطة العرب في معاشهم، يدلنا على أن الرفعة في العربية المستعملة واحدة معروفة بين القبائل، إلا ما وقع فيها من طرق الأداء الخاصة التي اصطلح عليها باللهجات أو اللحون، أو من وصفوا بشيء من البعد عن الفصاحة لاختلاطهم بغيرهم .

وهنا نصل إلى نقطة مفصلية وهي الجدلية بين العربية والعامية باعتبارها اللغة التي يتكلم بها عامة الناس في كل قطر عربي، في أحاديثهم فيما بينهم إلى جانب اللغة العربية، وقد اتسمت هذه اللهجات بصورة خاصة تميزها في كل بيئة من البيئات، وقربها وبعدها عن العربية يختلف من بلد لآخر.[30]

والدراسات كثيرة حول هذه الجدلية والتدافع بين العربية والعامية، باحثة عن خطر هذه اللهجات على العربية وتوظيفاتها في الميادين العلمية، ورابطة إياها بالعربية من حيث استمداد كلماتها وأصالة بعض تعبيراتها، وغيرها كثير من الدراسات التي شغلت حيز العربية والعامية، وليس المراد هنا الحديث عن هذا المسلك العلمي المتشعب، بل المراد اظهار التوجيه القرآني للهجات العربية قديما والذي أوصل العربية غضة طرية، مادام أن القرآن أول مصدر لغوي باتفاق كل العلماء إلا من شذ من مرضى القلوب من غير مستند علمي ظاهر.

[30] ينظر: محمد عاشور، 2000م، ص15. وإبراهيم أنيس، 2003م، ص26/25.

فالقرآن من خلال منهج الانتقاء والاختيار المعجز في العربية على مستوى الألفاظ والتراكيب وكذا اللهجات قد ساق لنا مسلكا علميا دقيقا يحتكم إليه في دراسة هذه اللهجات الحديثة أو ما يعرف بالعامية، وهذا الأصل هو قياس هذه اللهجات على ما يتماشى وفصاحة العربية لفظا وتركيبا، لا النزول بالعربية إلى مدارج اللهجة التي تخالف كثيرا العربية قواعدا وألفاظا، فنبحث عن وجوه الرفعة والاتصال بين هذه اللهجات والعربية، ونبحث عن السبل التعليمية التي توصل لرافد الفصاحة؛ الذي لا يوصل إليه إلا عن طريق لغة القرآن والشعر والحياكة الكلامية في منهلها العذب.

وما دام أن القوم الذين نزل القرآن بلسانهم على اختلاف طرق أدائهم للعربية لم يطالبوا بترك لهجاتهم والعدول عنها إلى لهجة خاصة لصعوبة ذلك، فليس من الضروري أن نطالب الناس بترك لهجاتهم واستعمال العربية الفصحى الزاما، مدام أن هذه اللهجات مما درجوا عليه وألفوه، ولا نريد بهذا قياس ما كان عليه العرب من اللغة مع ما هو موجود، فهذا لا وجه للقياس فيه، إذ القوم يومها أسياد الفصاحة والبيان، لكن ما نريد أن نصل إليه هو ضرورة التفرقة بين الأصل الذي يجب التمسك به والحفاظ عليه على ما كان عليه، والبحث عن طرق علمية حديثة من أجل النهوض به وتعميمه وهو العربية الفصحى، وبين الدارجة أو العامية التي لا يمكن أن نجعلها بديلا أو لغة علم لأي سبب من الأسباب.

فوجود اللهجة العامية والعربية لا تناقض وتدافع فيه، إذا كانت الفصحى هي اللغة التي ينشأ عليها الجيل تعليما ويتقنها ديانة واعتزازا وانتسابا، فكما أن العرب قد سلّموا أن لغة القرآن أعظم لغة وأن لهجة قريش أرفع لهجة وهم في العربية الجزلة لم يخرجوا عنها، فحري بنا ولهجاتنا لا تمّت بكبير الصلة للعربية أن نسلّم للعربية أمر لساننا، ونحاول فك كل العقد التي تحاول تعطيل مسار العربية واقعا.

وأما ما يلتقط من صعوبات خاصة بتعلم الفصحى لدَرْجِ الناس على لهجتهم الخاصة وفشوها فيهم، فليس هذا ذو شأن يحتج به إذا قلبنا صفحات التاريخ لنجد فيها أناسا من العجم ليس لهم اتصال نسب ولا لسان بالعربية، قد تعلموها وكتبوا فيها كتابات بديعة سالت من أناملهم المعطاءة، ونحن نرى في وقتنا كثيرا ممن أتقنوا العربية من الصينيين والأوروبيين وغيرهم، خاصة مع تطور الإمكانات وآليات التعليم التي ضمنت السهولة واختصرت الوقت، ثم إن التماشي مع فيه سهولة والبحث الدؤوب عن التسهيلات

والرخاء في جانب العلم والمعرفة، فيه شيء من قصور الهمم وتعطيل إمكانات العقل الذي يصقل بالتحديات والصعوبات، فاعتماد العامية كونها سهلة منتشرة لا يعني في المقابل صعوبة العربية، كما لا يعني الدلالة على الخيرية ولا الرقي الموجود في الناس.

ومع هذا التوسع والانتشار الهائل لمختلف اللهجات في العالم العربي والإسلامي، لا خوف على العربية من حيث قواعدها ومفرداتها وحتى طرق الأداء فيها على نسق ما هو مكتوب محفوظ ثابت في القرآن والسنة والشعر وغيرهم، فلو أن الحاذق صاحب الباع في اللغة ومخارجها يقرأ قصيدة لعنترة أو الأعشى يؤديها بنفس الأداء الذي كانت تؤدى عليه في عصر الفصاحة والبيان، ولو أن القارئ المتمكن قرأ علينا آيات القرآن لسمعناها من فيه عذبة جزلة على ما كانت تتلى عليه أيام التنزيل، وهذا وجه العربية الذي يفرقها عن باقي اللغات ووجه اعجازي في القرآن العربي المبين الذي يميزه عن باقي الكتب السماوية.

فالعربية ثابتة محكمة من هذه الناحية حفظها الله بحفظ القرآن، لكن الخوف على العربية من حيث استعمالها واقعا في مختلف النظم والميادين، والخوف عليها من الدعاوي التي ما لبثت تظهر مرة بعد أخرى مطالبة بالاستغناء عنها، وإبدالها بلهجات معينة أو لغات أمم أخرى كالإنجليزية والفرنسية، بداعي التسهيل ومواكبة الركب الحضاري، بيد أننا في مقابل هذا نجد كثيرا من الجهود الراقية التي تحدُّ من خطر هذه الدعاوي، حارصة ومجتهدة في تقديم دراسات ومشاريع من شأنها النهوض بالعربية واقعا وربطها بمختلف التحولات العلمية والتكنلوجية.

وكمحصلة لهذه الجزئية نقول بما أن العرب وغيرهم من الأمم لم يكونوا على مستوى لهجي واحد ولا لسان واحد مع غيرهم من الأقوام، وقد جمعهم القرآن وجمعتهم العربية فقرئ كتاب ربنا بلسان عربي واحد جمع شتات الألسن التي كانت منتشرة بين القبائل، واستمال ألسن العجم فصاروا مبدعين في قراءته وعلومه، بل تعدّوا ذلك إلى علوم أخرى دقيقة شغلوها ترجمة وابتكارا، فلا يعدّ هذا التعدد اللهجي والانتشار للعامية في وقتنا أمرا غريبا لا على العربية ولا على غيرها من اللغات، فهو حاصل متقرر في تاريخ كل اللغات، ونحن كأبناء للعربية قد استفدنا من مسلك القرآن والإسلام مع تعدد العادات والثقافات وكذا

الألسن والذي مفاده أن اللهجة مهما كانت لا تحجب العربية ولا تكون بديلا لما اختاره الله لكتابه وسار به العلماء في كتبهم وأشعارهم وكل جهودهم الرصينة التي كتبت بلغة القرآن.

أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول.

4. خاتمة:

في ختام هذه الورقة البحثية المتعلقة بطريقة القرآن في توجيه العربية لهجيا وما أحدثه هذا التوجيه من أثر امتد على العربية عبر العصور إلى وقتنا ننتهي إلى جملة من النتائج المتوصّل إليها، بيانها فيما يأتي:

– اختلف الأداء في العربية بما يسمى بالتعدد اللهجي أو لغات القبائل أو لحونهم، فكانت لهجة قريش أرفع هذه اللهجات بفضل العوامل الدينية، والتجارية، والسياسية، التي رفعت من مكانة قريش ولهجتهم.

– وجوه الاختلاف بين اللهجات العربية قد يكون على مستوى الأداء الصوتي كما قد يشمل الجانب المعنوي والبنيوي كالهمز والتليين، والتذكير والتأنيث وغير ذلك.

– من سماحة الدين الحنيف وتيسيره على المسلمين، أن ترك الألسن على سجيتها وما هي عليه من اللهجة، من إمالة وتفخيم، وترقيق، وما شابه ذلك من طرائق في الكلام، بما تستجيب له طبيعتهم اللغوية.

– القرآن الكريم لم يَجمع في سوره وآياته كل ما تكلمت به العرب في لهجاتها وإنّما تخير ربنا سبحانه الأرفع ليكون المعجزة اللغوية، فكان غالب ما فيه بلغة قريش مع بعض لغات القبائل الأخرى.

– كان للعربية بفضل القرآن السير في مسار ثابت عبر العصور وفي مختلف الأمكنة، لم تتشتت كما حدث لكثير من اللغات الأخرى، فلو أن هذه اللهجات العربية لم تنتقى وتزيد عليها الدراسات بحثا بمعية القرآن لتحولت عن أصلها الأول وتغيرت بتغير ظروف الناطقين بها أو تعاقبهم، ولما وجدت لغة موحدة ثابتة تمثلت في لغة القرآن الكريم.

– القرآن من خلال منهج الانتقاء والاختيار المعجز في العربية على مستوى الألفاظ والتراكيب وكذا اللهجات قد ساق لنا مسلكا علميا دقيقا يحتكم إليه في دراسة هذه اللهجات الحديثة أو ما يعرف بالعامية، وهذا الأصل هو قياس هذه اللهجات على ما يتماشى وفصاحة العربية لفظا وتركيبا لا النزول بالعربية إلى مدارج اللهجة التي تخالف كثيرا العربية قواعدا وألفاظا.

5. قائمة المراجع:

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

1/ إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، 2003م.

2/ إبراهيم أنيس، محاضرات عن مستقبل اللغة العربية المشتركة، جامعة الدول العربية، مهد الدراسات العربية العالمية، القاهرة، مصر، 1960م.

3/ ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، تحقيق: علي محمد الضباع، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان، [د.ت].

4/ ابن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق: مصطفى العلوي، محمد البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1387هـ.

5/ ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ط: 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1404هـ.

6/ ابن منظور، لسان العرب، ط: 3، دار صادر، بيروت، لبنان، 1414هـ.

7/ أبو منصور الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط: 1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 2001م.

8/ أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، باب: حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى، رقم: 21172.

9/ أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ط: 1، نشر محمد علي بيضون، 1418هـ-1997م.

10/ أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1399هـ-1979م.

11/ أحمد شلبي، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ط: 2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1959م.

12/ بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: 1، 1376هـ-1957م.

13/ جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد علي منصور، ط: 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1418هـ-1998م، جزء1، ص175-176.

14/ الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل، ط: 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1419هـ-1998م.

15/ عبد الرحمن ابن الجوزي، فنون الأفنان في عيون علوم القرآن، ط: 1، دار البشائر، بيروت، لبنان، 1408هـ-1987م.

16/ عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، ط: 2، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1408هـ-1988م.

17/ عبد الغفار حامد هلال، اللهجات العربية نشأة وتطورا، ط: 2، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، 1414هـ-1993م.

18/ عبد الله بن الحسين بن حسنون، اللغات في القرآن، تحقيق: صلاح الدين المنجد، ط: 1، مطبعة الرسالة، القاهرة، مصر، 1365هـ-1946م.

19/ عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، مجموعة من المحققين، ط: 3، مطبعة مصطفى الباي الحلبي، مصر، 1375هـ-1955م.

20/ محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، باب: ذكر الملائكة، رقم: 3219.

21/ محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ط: 2، دار التراث، بيروت، لبنان، 1387هـ.

22/ محمد عاشور، اللهجة العامية، ط: 1، دار الأمل، مصر، 1420هـ-2000م.

23/ مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، لبنان، [د.ت].